لغز الرعب الذى

قد يتكرر في اي لحظة

فيما كانت الجيوش المتحاربة تقاتل بشراسة في قلب أوربا أثناء الحرب العالمية الأولى، كان هناك عدو خفي وقاتل يتربص بالبشرية، عدو صغير الى درجة ان العين المجردة لا تتمكن من رؤيته ولكنه اشد ضراوة من جميع الأسلحة الحديثة التي اخترعها الإنسان، سيغزو أجساد ثلث سكان الأرض ويسبب من الوفيات خلال عدة شهور ما لم تحصده الحرب خلال أربعة أعوام، انه وباء الأنفلونزا عام ١٩١٨، الذي شحبت ذكراه ومات اغلب من عاصره فنسيه الناس وظنوا ان عصر الأوبئة قد انتهى الى الأبد، لكن ظهور سلالات جديدة من الفيروسات مثل أنفلونزا الطيور والخنازير أعاد الى الأذهان شبح ذلك الوباء المرعب وجعل الكثيرين يتساءلون حول إمكانية حدوثه مرة أخرى.

بعض القرى والمدن بلغت نسبة وفياتها ٩٠ % من عدد السكان .. اي ابادة جماعية

في خضم الحرب العالمية الأولى أريقت الكثير من الدماء واستخدمت أسلحة مدمرة جديدة لم يعرفها العالم من قبل كالدبابات والغواصات والطائرات والأسلحة الكيميائية، وبالنسبة للكثيرين في أوربا فأنهم لم يكونوا يتخيلون حدوث أمر أكثر سوءا من الحرب التي كانوا يحترقون في اتونها، لكنهم كانوا مخطئين، فما سيحدث بعد آذار / مارس ١٩١٨ سيكون

شيئا مختلفا عن كل ما رأوه سابقا وسيحصد من الأرواح البشرية أكثر مما فعلته الحرب بسنواتها الأربع المريرة، لكن هذا الموت الداهم لن يأتي من ساحات المعارك المشتعلة في قلب أوربا بل سيحلق طائرا عبر المحيط ليحل ضيفا ثقيلا على سكان القارة العجوز المنهكين من الحرب.
لم يكن مرض الأنفلونزا شيئا جديدا فقد عرفه البشر منذ القدم، ذكره ابقراط الإغريقي ووصف أعراضه قبل ٢٥٠٠ عام وانتشر المرض عدة مرات كوباء كان أخرها هو وباء روسيا ١٨٨٩ الذي خلف أكثر من مليون ضحية حول العالم، لكن على العموم، لم يكن ينظر الى الأنفلونزا على انها مرض قاتل، خاصة بالنسبة للشباب الأقوياء والأصحاء، فضحايا المرض كانوا في الغالب من ذوي المناعة الضعيفة من الأطفال الصغار وكبار السن، لكن هذه النظرة المتفائلة نحو المرض ستتبدل بشكل كبير مع حلول صيف عام ١٩١٨ وحدوث الموجة الأولى لوباء أنفلونزا مميت سيعرف لاحقا بأسم الأنفلونزا الاسبانية (Spanish flu) رغم ان اسبانيا لم تكن هي بؤرة المرض، لكن لأنها كانت على الحياد في الحرب لذلك بقيت صحافتها حرة على عكس الدول المتحاربة التي وضعت قيودا صارمة على الصحافة خاصة فيما يتعلق بالخسائر وحجم الضحايا ونتيجة لذلك فأن أخبار المرض التي كانت تتناقلها الصحافة العالمية كانت تأتي في اغلبها من اسبانيا مما جعل الكثيرين يظنون بأن مصدر المرض هو اسبانيا.

كما في بقية أنواع الأوبئة فأنه يصعب تحديد البؤرة الأولى لانتشار المرض، فالباحثين يضعون عدة مناطق محتملة لحدوث الإصابة الأولى مثل الصين والولايات المتحدة والنمسا إلا إن المرض تفشى لأول مرة على

نطاق واسع في معسكر للجيش الأمريكي في ولاية كنساس وبعدها ظهرت إصابات جديدة في عدة ولايات أمريكية أخرى قبل ان ينتقل المرض عبر الأطلسي مع الجنود الأمريكيين المتوجهين الى جبهات القتال في أوربا ومن هناك انتشر بسرعة بفضل تطور وسائط النقل وحركة الجيوش المتحاربة ليحصد أرواح ضحاياه في جميع أنحاء المعمورة.

الوباء تفشى على شكل موجات، الموجة الأولى حدثت في آذار / مارس ١٩١٨ وكانت شدة المرض فيها معتدلة وتشبه في أعراضها الى حد كبير أعراض الأنفلونزا الموسمية العادية فكان ضحاياها في الغالب هم من الأطفال وكبار السن فيما استرد الشباب والرجال الأصحاء عافيتهم وشفوا من المرض بسرعة لكن مع حلول شهر آب / أغسطس ١٩١٨ حدثت الموجة الثانية التي تغيير المرض خلالها بطريقة دراماتيكية، لقد كان نفس الفيروس بدليل أن المرضى الذين سبق ان أصابوا به في الشهور السابقة تكونت لديهم مناعة ضده، الا انه تحول الى مرض مميت وشديد الفتك بضحاياه، وأصبح الشباب والرجال الأصحاء هم الأكثر عرضة للإصابة بالمرض والموت بسببه على عكس الأنفلونزا العادية التي تصيب عادة ذوي المناعة الضعيفة، كما ان أعراض المرض ومضاعفاته تغيرت بشكل ملفت للنظر، فقد كتب احد من عاصروا تلك الفترة قائلا : "إحدى مضاعفات المرض الغريبة هي النزيف من الأغشية المخاطية للجسم، على الخصوص من الأنف والمعدة والأمعاء، كذلك حدوث نزف من الإذن"، النسبة الأكبر من الوفيات كانت تحدث بسبب حدوث مضاعفات تؤدي الى إصابة المريض بذات الرئة فتمتلئ رئته بالسوائل والدم وتصبح عملية التنفس صعبة

ويموت المريض اختناقا، كان المرض فتاكا الى درجة ان بعض المرضى كانوا يموتون في نفس اليوم الذي تظهر عليهم أعراضه، وقد شاعت الكثير من القصص حول أناس ظهرت عليهم أعراض المرض في الصباح فماتوا ودفنوا في المساء او آخرين سقطوا أرضا فجأة أثناء توجههم للعمل وماتوا بعد عدة ساعات، إحدى القصص الشائعة آنذاك كانت عن أربع نسوة شوهدن قبل منتصف الليل وهن يضحكن ويلعبن الورق لكن عند بزوغ الفجر ثلاثة منهن كن قد فارقن الحياة بسبب المرض، ساهمت هذه القصص عن طبيعة المرض الفتاكة في إشاعة جو من الرعب فأصبح الناس يبتعدون عن الأماكن المزدحمة وأخذت بعض المتاجر تمنع زبائنها من الدخول اليها وتطلب منهم كتابة ورقة بطلباتهم وتركها أمام باب المتجر، تعطلت المدارس وأغلقت بعض المصانع والأسواق أبوابها واكتظت المستشفيات بالمرضى فيما انخفضت أعداد الأطباء والممرضات للعناية بهم، لقد كانت هناك عوائل كاملة فارقت الحياة او مات عدد كبير من أفرادها وتيتم الكثير من الأطفال وأصبحت جنازة الميت لا تستغرق في أحسن الأحوال سوى ربع ساعة ولا يحضرها سوى بعض ذوو المتوفى وهناك الكثير من الموتى كانوا يبقون بدون دفن لأن رجال الدين وحفارو القبور كانوا مرضى او موتى، اما في جبهات القتال فأن ضحايا المرض من الجنود كانوا يموتون بالجملة ويدفنون في مقابر جماعية، كان الوباء قاتلا ومدمرا الى درجة ان بعض المؤرخين يعتقدون ان المرض اثر في مسار ونتيجة الحرب، فحسب هؤلاء، فأن الأضرار التي لحقت بالألمان والنمساويين نتيجة المرض كانت اكبر من تلك التي أصابت الحلفاء، وان الكثيرين من الجنود الذين اعتبروا

قتلى نتيجة المعارك لم يكونوا ضحايا الأسلحة الحربية ولكن قضوا بسبب المرض.

حسب الإحصاءات فأن ثلث سكان الأرض أصيبوا بالمرض أي حوالي ٥٠٠ مليون إنسان (حسب تقديرات عام ١٩١٨) وان ١٠ – ٢٥ % من هؤلاء المصابين فارقوا الحياة أي بين ٥٠ – ١٠٠ مليون إنسان وهو ما يعادل ٣ – ٦ % من سكان الأرض آنذاك، نسبة المتوفين نتيجة المرض قياسا الى عدد المصابين به هي ٢ – ٢٠ % في حين ان هذه النسبة تبلغ ٠,١ % في الأنفلونزا العادية، النسبة الأكبر من الوفيات حدثت في الأعمار بين ١٥ – ٦٥ عاما بينما تكون نسبة الوفيات عالية نتيجة الأنفلونزا الموسمية العادية بين الأطفال وكبار السن لضعف مناعتهم، الوباء انتشر في كل العالم وخلف ضحايا في جميع البلدان، حتى الجزر النائية في المحيط الهادئ لم تسلم من ويلاته، في الولايات المتحدة بلغ عدد المصابين ٢٨ % من مجموع السكان وعدد الموتى ٦٧٥٠٠٠، في الهند وصل عدد الموتى الى ١٧ مليون إنسان، في بريطانيا ٢٥٠٠٠٠ وفي فرنسا ٤٠٠٠٠٠، في استراليا ١٢٠٠٠ وفي اليابان ٣٩٠٠٠٠، هناك قرى في ألاسكا ونيوزلندا ومناطق أخرى من العالم بلغ عدد الموتى فيها ٨٠ – ٩٠ % من عدد السكان، ويرجع الكثيرون هذا التفشي المروع للوباء الى عودة الجنود الى أوطانهم من جبهات القتال في أوربا حاملين معهم الفيروس إضافة الى عدم تطبيق الإجراءات الطبية الصحيحة لمواجهة الوباء وأهمها الحجر الصحي للمسافرين المشكوك في إصابتهم بالمرض.

مع بداية عام ١٩١٩ بدء الوباء ينحسر ويختفي على نحو سريع، البعض عزا ذلك الى تزايد الخبرة الطبية للتعامل مع المرض واتخاذ إجراءات احترازية في معظم الدول ضد انتشاره، فيما يرى البعض الأخر بأن السبب الحقيقي وراء نهاية الوباء يكمن في فيروس الأنفلونزا نفسه حيث انه يفقد قوته وصفاته المميتة بالتدريج خلال انتقاله عبر عدة أجسام مضيفة (مرضى).

و رغم الخسائر الثقيلة التي ألحقها بالبشرية الا ان الناس سرعان ما نسوا الوباء وربما كان لنهاية الحرب وبدء زمن سلم جديد دور كبير في ذلك، فجأة ضاعت ذكرى المرض بعد ان كانت أخباره تطغي على كل شيء حتى ان بعض الباحثين أطلقوا عليه اسم "الوباء المنسي"، لكن مع عودة ظهور فيروس أنفلونزا الطيور وأنفلونزا الخنازير في تسعينيات القرن المنصرم عاد شبح وباء عام ١٩١٨ ليخيم على البشرية مرة أخرى وأخذت الجرائد والمواقع الالكترونية تكتب عنه وبدء الناس يعوون مدى خطورة فيروسات الأنفلونزا وحجم الموت والدمار الذي يمكن ان تنشره في حال تفشت كوباء، كما ان المختبرات ومراكز الأبحاث الطبية حول العالم بدئت في دراسة وباء عام ١٩١٨ لمحاولة معرفة نوع الفيروس الذي تسبب بالمرض وكيف نشأ وكيفية انتقاله الى جسم الإنسان وأشكال العدوى واثر الفيروس على الجسم ، وبالفعل تمكن العلماء من إعادة تخليق الفيروس عن طريق عينات حصلوا عليها من جثة امرأة من الاسكيمو قضت في وباء ١٩١٨ ودفنت في ثلوج ألاسكا، وقد قام الأطباء عام ٢٠٠٧ بتعريض بعض قردة التجارب للفيروس في احد المختبرات الكندية، نتيجة الاختبار

كانت مخيفة وبشعة، لقد بدئت أعراض المرض بالظهور خلال ٢٤ ساعة من تعريض القردة للفيروس وسرعان ما فارقت الحياة بعد عدة أيام، لقد كان التدمير الذي حدث لأنسجة الرئة كبيرا الى درجة ان القرود اختنقت وماتت نتيجة غرق رئتها بالدماء، وهي نفس الأسباب التي ذكرها المؤرخون عن أعراض ومضاعفات مرض الأنفلونزا عام ١٩١٨، كما ان التجربة فسرت للأطباء السبب في ان اغلب ضحايا المرض هم من أصحاب المناعة القوية وهو لغز كان يحيرهم لعقود، لقد أظهرت التجربة بأن الدمار الذي كان يلحق بأنسجة الجسم لم يكن سببه الحقيقي هو فيروس المرض بل هو نتيجة لحالة من الخلل تحدث في إفراز البروتينات المنظمة لعمل جهاز المناعة وذلك يؤدي الى تحفيزه بشكل مفرط بحيث يكون رد فعله سببا في تدمير خلايا وأنسجة الجسم ولهذا السبب كلما كان جهاز المناعة أقوى كلما كان تأثير المرض والفيروس أقوى وأكثر تدميرا.

ويعكف الأطباء حاليا لدراسة كيفية ابتكار طرق جديدة لعلاج فيروسات الأنفلونزا الخطرة في حال تفشيها كوباء مرة اخرى، ورغم الغاية السامية لهذه الاختبارات العلمية الا ان هناك بعض المعترضين عليها بسبب الخوف من ان يؤدي تسرب بعض الفيروسات التي تم إعادة إحياءها الى وباء وكارثة عالمية جديدة.

ملحق حول فيروسات الأنفلونزا

كثر الحديث في الآونة الأخيرة حول فيروسات الأنفلونزا لذلك ارتأينا ان نختم هذه المقالة بشرح مبسط لهذه الفيروسات وأنواعها تساعد القارئ

الكريم في استيعاب بعض المصطلحات الطبية التي يكثر تداولها في الصحف والفضائيات، هناك ثلاثة أنواع من فيروسات الأنفلونزا :

- فيروس الأنفلونزا نوع (A) : اخطر فيروسات المرض وأكثرها فتكا بجسم الإنسان، تعتبر الطيور البرية هي المضيف الطبيعي لأكثر أنواع هذه الفيروسات وتنتقل منها عادة الى الحيوانات كالطيور المدجنة والخنازير ومنها الى البشر وتسبب في حدوث الأوبئة المميتة، سلالات هذا الفيروس تختلف في خطورتها داخل النمط الواحد، فمثلا فيروس عام ١٩١٨ كان مميتا وهو من نوع (H١N١) في حين ان سلالة او فصيلة أخرى من نفس الفيروس تسببت في حدوث وباء أنفلونزا الخنازير ٢٠٠٩ تبدو اقل خطورة بكثير.

- فيروس الأنفلونزا نوع (B) : هذا النوع لا يحتوي سوى على فصيلة واحدة ولا يصيب سوى البشر وهو اقل خطورة وانتشارا من النوع (A) ولا يتحول الى وباء.

- فيروس الأنفلونزا نوع (C) : فصيلة واحدة وهو اقل انتشارا من النوعين السابقين وهو عادة يصيب الأطفال وتكون خطورته قليلة.